الملخص:

يهدف البحث إعلاء مقام أمهات المؤمنين ورفيع مكانتهنّ ردًّا على من يستنقص من قدرهن ويطعن في شرفهن، من بعض المغرضين من أدعياء التشيع، باستجلاء الآيات الكريمة من سورة الأحزاب التي خاطبتهن مباشرة ووجهت لهن الوصايا والتعليمات –عليهن رضوان الله–، في مواقف من حياتهن الزوجية الخاصة مع رسول الله ﷺ في صورة العتاب. وأظهرت وأعلَت مكانة رسول الله ﷺ وما له من الجاه والمنزلة عند مولاه، وتأييده وموالاته له حتى مع أقرب الناس إليه. ومحاولة التَّدَسُّس في هذه النصوص واستشفاف ما فيها من المعاني ودلالات تراكيبها وأسرار نظمها، وما بُني عليها وعُطِف، من جُملٍ سابقة أو لاحقة للإنصات إلى ما يخص علوم البلاغة وأساليبها ووجهاتها في استقراء دلالات المعاني وتلوّن إيحاءاتها؛ ما أعلى قدرهن، واستجلت مكانتهن عند الله ورسوله ﷺ، كقوله: (لستن كأحد من النساء)، (ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن)، (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت). وعلو مكانتهن وطُهرهن وتطهيرهن –عليهن رضوان الله–؛ إعلاء للمقام المحمدي، وما له صلى الله عليه وسلم عند الله من المنزلة والجاه؛ فلا يختار له ربه بعلمه إلا مَن هُنّ أهل لجواره وقربه وخدمته وإسعاده. والذَّبّ عنه ﷺ في حُرمه وما اختاره واصطفاه الله له منهن في القرب والطهر، وكلهن مشرّفات مطهّرات. وقد نهجتُ منهج عبدالقاهر الجرجاني في تتبعه دلالات التراكيب وتحليلها، في نظريته نظرية النَّظم في القرآن الكريم. وشمل البحث ثلاثة مباحث: المبحث الأول: آيات التخيير والوصايا الإلهية لأمهات المؤمنين –رضي الله عنهن–. المبحث الثاني: آيات تزويج زينب بنت جحش للنبي ﷺ، وإبطال عادة التبني. المبحث الثالث: آيات الحلال من النساء للنبي ﷺ، ورفع الحرج عنه فيما قرَّب أو بعَّد منهنّ. ونتَج البحث إلى: رفعة مقام النبي ﷺ وتأييد الله تعالى له، وموالاته إياه، مع أخصّ الناس له؛ أزواجه ﷺ. وثبوت الطُّهر والتطهُّر لأمهات المؤمنين –رضي الله عنهن– (إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا).كما نفى شبههن ببقاء النساء من عامة الأمة، فهُنَّ الأفضل؛ دخولهن في مقصود (أهل البيت)؛ لأنهن الساكنات فيه؛ استمرار نفي الرجس عنهن وتطهيرهن بدلالة الفعل المضارع والمصدر (ويطهركم تطهيرا).

الكلمات المفتاحية: أمهات المؤمنين – التأييد – المقام المحمدي – الطهارة – سورة الأحزاب

Abstract:
The aim of this research is to elevate the status and high rank of the Mothers of the Believers, in response to those who seek to undermine their honor and cast aspersions on them from some who claim an affiliation with Shiism. This is achieved by exploring the noble verses from Surah Al-Ahzab, which directly addressed them and presented divine instructions and admonitions — may Allah be pleased with them — in the context of their private marital lives with the Messenger of Allah ﷺ, in a tone of what appears as a reproach. These verses also revealed and exalted the esteemed position of the Prophet ﷺ and his status before his Lord, and affirmed Allah's support and allegiance to him even over those closest to him.
The research seeks to delve into these texts, to uncover their meanings, structural implications, and the rhetorical subtleties and miraculous organization of their language. This includes examining related or adjacent statements that highlight aspects of rhetoric and stylistic nuances, leading to a deeper understanding of their implications — all of which serve to elevate the status of the Mothers of the Believers and reveal their standing with Allah and His Messenger ﷺ. Examples include Allah's words: "You are not like any other women," "They will not be grieved and will be satisfied what you have given them all," and "Indeed, Allah desires to remove impurity from you, O People of the Household."
Their elevated status, purity, and excellence — may Allah be pleased with them — reflect the exalted status of the Prophet ﷺ and his honored rank with Allah. Allah, in His infinite knowledge, would not choose for His Prophet ﷺ anyone except those who are worthy of closeness and companionship, and are fitting to serve and be sources of joy for him. Thus, defending him ﷺ in regard to his household and those chosen and purified by Allah to be close to him becomes essential. All of his wives are honored and purified.
In this research, I adopted the methodology of 'Abd al-Qāhir al-Jurjānī in his exploration of the meanings of sentence structures

and his theory of *naẓm* (arrangement) in the Qur'an. The study comprises three sections:

١. **First Section**: Verses that indicate the divine selection of and commandments to the Mothers of the Believers — may Allah be pleased with them.

٢. **Second Section**: Verses regarding the marriage of Zaynab bint Jaḥsh to the Prophet ﷺ, and the abolition of the pre-Islamic custom of adoption.

٣. **Third Section**: Verses on what is lawful to the Prophet ﷺ of marrying women, and the rejection of any critique concerning who he chose to bring closer or distance from him.

The research concludes with affirming:

- The exalted rank of the Prophet ﷺ and Allah's support and allegiance to him, even in matters involving his closest relations: his wives ﷺ.
- The confirmed purity and sanctity of the Mothers of the Believers — may Allah be pleased with them — as indicated in the verse: *"Indeed, Allah desires to remove impurity from you, O People of the Household, and purify you completely."*
- The disassociation of their likeness from that of ordinary women of the Ummah; they are the best among women,
- Their being included in the intended meaning of *Ahl al-Bayt* (People of the Household), since they were the ones residing in his homes.
- The ongoing removal of impurity from them and their purification, indicated by the use of the present tense verb and the verbal noun (ويطهركم تطهيرا — "and continuously purify you completely").

Keywords: Mothers of the Believers - Support - Muhammadan status - Purity - Surat Al-Ahzab

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام الأولين والآخرين، خيرة خلق الله أجمعين محمد ﷺ. وبعد:

فإن الله عز وجل اختار محمدا ﷺ من بين الخلق أجمعين، واصطفاه واجتباه من بين كافة الأنبياء والمرسلين عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين، واصطفى له أصحابا، وأهلا وأزواجا وآلًا، جعلهم له خير نصيرٍ ومعين.

فهم الخيرة وهم الصفوة وهم الأطهار الأخيار الذين تأهلوا لصحبة ومعية نبيه ﷺ، ولخدمته ونصرته ورفع رايته.

وخاصة الخاصة في الجوار والمعية من هؤلاء الصحب الكرام؛ أزواجه أمهات المؤمنين -عليهن رضوان الله أجمعين-، وقد اصطفاهن الله واختارهن من بين نساء العالمين لإسعاد حبيبه ﷺ، وخدمته ونصرته، وهو العليم الخبير الذي يخلق ويختار، وهو الذي يُسعِد ويُشقِي، ويُقَرِّب ويُبعِد، فهُنَّ الصفوة، وهُنَّ الخيرة، وهُنَّ الطاهرات المؤهلات للقرب من الجناب النبوي الشريف، والانضمام إلى عقده المُنيف، فكُنَّ المسعودات الموفقات الفائزات الحائزات للشرف الأفخر والحظ الأوفر، فأصبحن أمهات للمؤمنين ووُصلاتٍ للعطاء النبوي، وواسطة للعلوم المحمدية، ومفتاحا للكنوز الأحمدية. واستفاد البحث من دراسات سبقته وهي:

- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- تخيير النبي ﷺ أزواجه ودلالاته في ضوء سورة الأحزاب: دراسة تحليلية موضوعية، عبدالله عيدان الزهراني، مجلة ج. الطائف للعلوم الإنسانية، مج٥، ع١٩، ٢٠١٩م.
- آيتا التخيير في سورة الأحزاب: دراسة تفسيرية تحليلية، عبدالغفور غلام عبدالغفور، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، مج٦، ع٢٤، ٢٠١٥م.
- مكانة أمهات المؤمنين في كتاب رب العالمين: دراسة موضوعية في ضوء سورة الأحزاب، إيمان مغربي، مجلة كلية القرآن الكريم، ج. القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ع٨، ٢٠١٨م.

- من بلاغة الخطاب الموجه إلى أمهات المؤمنين بما عليهن من آداب في سورة الأحزاب من الآية ٢٨-٣٤، الجوهرة آل جهجاه، مجلة العلوم العربية، ج. الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع٣٢، ٢٠١٤م.

وقد أضاف البحث إبراز وإجلاء التأييد الإلهي للنبي ﷺ، وموالاته إيَّاه، حتى مع أخصَّ المقربين منه؛ أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-، وما حصل لهنّ من الشرف والعلو، والطهر والتطهير، بالوصايا الربانية والمزايا والمكافآت الإلهية لهنّ؛ بدراسةٍ تحليليةٍ بلاغيةٍ؛ تتنصَّت إلى دقائق المعاني من دلالات الألفاظ والتراكيب في آيات من سورة الأحزاب، ما يردُّ عنهنّ تُهم الأعداء وتشويشاتهم حولهنّ، ورفع قدرهن عند الأُمَّة كافة. وتدور مشكلة البحث وأهميته قديمة جديدة هي:

١-رد ودحض ما يثيره بعض أدعياء التشيع وأتباعهم للنيل من أعراض بعض أمهات المؤمنين وإثارة الشبه والاتهامات نحوهن. والذب عن الجناب النبوي وحفظه ورعاية حرمه ﷺ وحُرم أزواجه الكرام أمهات المؤمنين -عليهن رضوان الله- من الاتهامات الباطلة والتشويشات الضالة الموجهة إليهن من قِبَل هؤلاء المفترين، وما رموه من سهام معوجّة ورماح مُثَلَّمة في أعراضهن وتجرأوا به على الحمى النبوي والحرم المحمدي؛ ما هو إلا سهام مردودة عليهم ورماح بائرة رجعت إليهم، انكشفت بها أكاذيبهم وتعرَّت بها افتراءاتهم.

-٢عرض وتبيين وإشهار النصوص والآيات القرآنية التي رفعت شأن أمهات المؤمنين وأظهرت مكانتهن عند الله ورسوله ﷺ، والكشف عن دلالاتها؛ ليثبت في الأذهان ما لهن من القدر والشرف والجاه، ولقصد الاقتداء بهن والأخذ عنهن.

٣-التأييد الإلهي للنبي محمد ﷺ وموالاته له ﷺ في خاصة حياته ومع أزواجه أقرب الناس إليه، وفي الآيات رفعة وتشريف لأمهات المؤمنين ينبغي إشهاره لمن عاداه وأبغضه ﷺ من أعدائه، (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ودخلوهن في (أهل البيت) بالأولية مع الآل والذرية، لأنهن أهله وأزواجه الساكنات في بيوته ﷺ.

وقد تتبع البحث منهج عبدالقاهر الجرجاني في تتبع دلالات التراكيب؛ مما يخص مقاصد ومعاني الإعراب النحوي بحسب ما يُستبطن في آيات القرآن الكريم من المقاصد والأغراض.

وقد تتبعت الآيات معاني ودلالات التراكيب في النظم القرآني فيما يخص المواقف الزوجية التي فيها خطاب في صورة العتاب لأمهات المؤمنين عليهن رضوان الله في سورة الأحزاب آية آية وجملة جملة.

كما تقسَّم البحث إلى ثلاثة مباحث حول الآيات الخاصة بمواقف الزوجية للنبي ﷺ مع أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-، وما لحقها من الأحكام، والوصايا، التي أبانت عن تأييد الله تعالى له ﷺ، وموالاته إيَّاه حتى مع أقرب المقربين إليه، وهُنَّ أزواجه. وتضمَّن المباحث التالية: المبحث الأول: آيات التخيير والوصايا الإلهية لأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-. المبحث الثاني: آيات تزويج زينب بنت جحش للنبي ﷺ، وإبطال عادة التبني. المبحث الثالث: آيات الحلال من النساء للنبي ﷺ، ورفع الحرج عنه فيما قرَّب أو بعَّد منهنّ.

المبحث الأول:

آيات التخيير والوصايا الإلهية لأمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-.

- نص الآيات:

- **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا * إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)**[الأحزاب:٢٨-٣٦].

وقد جاء في سبب نزول الآيات الأولى أن أزواج النبي ﷺ سألنه التوسع والزيادة في النفقة، ولعله بعدما وسع الله عليه -عليه الصلاة والسلام- في الغنائم من غزوة الأحزاب المذكورة أحداثها في السورة، فوجد في نفسه عليهن ﷺ وهجرهن شهرا[١].

---

[١] - دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ على رَسولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ النّاسَ جُلُوسًا ببابِهِ، لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ منهمْ، قالَ: فَأُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ، فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ، فاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ له، فَوَجَدَ النَّبيَّ ﷺ جالِسًا حَوْلَهُ =

وما جاء في الصحيح: عن عائشة –رضي الله عنها– "لَمّا أُمِرَ رَسولُ اللهِ ﷺ بتَخْيِيرِ أَزْواجِهِ، بَدَأَ بي، فَقالَ: إنِّي ذاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، فلا عَلَيْكِ أَنْ لا تَعْجَلِي حتّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ، قالَتْ: قدْ عَلِمَ أنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكونا لِيَأْمُرانِي بفِراقِهِ، قالَتْ: ثُمَّ قالَ: إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قالَ: (يا أَيُّها النبيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحًا جَمِيلًا وإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسوله والدّارَ الآخِرَةَ فإنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)[الأحزاب:٢٨]، قالَتْ: فَقُلتُ: في أَيِّ هذا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فإنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسوله والدّارَ الآخِرَةَ، قالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْواجُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِثْلَ ما فَعَلْتُ"[٢].

خاطبَت الآية الكريمة أمهات المؤمنين: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)، وكان الخطاب في الآية الكريمة خطابا إلهيا مهيبا لأمر مهيب في شأن أزواجه ﷺ، ومناداته إياه بنداء التفخيم والتعظيم؛ لقدره العالي المُنيف عند الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا).

= نِساؤُهُ، واجِمًا ساكِتًا، قالَ: فَقالَ: لأَقُولَنَّ شيئًا أُضْحِكُ النَّبيَّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، لو رَأَيْتَ بنْتَ خارِجَةَ، سَألَتْنِي النَّفَقَةَ، فَقُمْتُ إلَيْها، فَوَجَأْتُ عُنُقَها، فَضَحِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَقالَ: هُنَّ حَوْلِي كما تَرى، يَسْألْنَنِي النَّفَقَةَ، فَقامَ أَبُو بَكْرٍ إلى عائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَها، فَقامَ عُمَرُ إلى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَها، كِلاهُما يقولُ: تَسْأَلْنَ رَسولَ اللهِ ﷺ ما ليسَ عِنْدَهُ؟! فَقُلْنَ: واللَّهِ لا نَسْأَلُ رَسولَ اللهِ ﷺ شيئًا أَبَدًا ليْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا، أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عليه هذِه الآيَةُ: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ حتّى بَلَغَ ﴿لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٨–٢٩]، قالَ: فَبَدَأَ بعائِشَةَ، فَقالَ: يا عائِشَةُ، إنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فيه حتّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ، قالَتْ: وَما هو يا رَسولَ اللهِ؟ فَتَلا عَلَيْها الآيَةَ، قالَتْ: أَفِيكَ –يا رَسولَ اللهِ– أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟! بَلْ أَخْتارُ اللَّهَ وَرَسولَهُ، والدّارَ الآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِن نِسائِكَ بالَّذِي قُلتُ، قالَ: لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ منهنَّ إلّا أَخْبَرْتُها، إنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا. صحيح مسلم (١٤٧٨).

[٢] – صحيح البخاري (٤٧٨٦).

وتحمل الآيات أمره –عليه الصلاة والسلام– بتبليغ أزواجه جميعا الخبر الإلهي الجليل الذي به حسُن أمر كل واحدة منهنّ في الدنيا والآخرة مع رسول الله ﷺ؛ في شأن اختيار السعادة العظمى والفوز الأكبر بجواره والإبقاء على الارتباط به بعقد الزوجية، أو اختيار مفارقته والخروج عن عصمته وعهد قُربِه والاقتران به ﷺ.

فالأمر هائل وعظيم في عرض الاختيار لكل واحدة منهنّ لنفسها ما شاءت من المصير والعاقبة، في القرب أو البعد من الله ورسوله في الدنيا والآخرة.

وكان أسلوب الآية الكريمة وأدوات تركيبها في صياغته دالٌّ على عظمة هذا العرض، وعظمة الفوز أو الخسران في الاختيار، فقد جاء الأمر الإلهي بواسطة المُناداة للنبي بنداء التعظيم والتفخيم للبعيد لبعد مكانته ومنزلته عند ربه ﷺ؛ بتبليغه إياهنّ بقول الله تعالى له: (قُلْ).

ولم يكن خطابا مباشرا، كما جاء بعده في مثل قوله عز وجل: (يا نساء النبي)، وإنما تجلَّت العظَمَة والرهبة الإلهية بالواسطة المحمدية التي هي أصل التكليف والنبوة والرسالة، فَصِيغَ التجلّي الإلهي بأمره تعالى إيَّاهُنَّ عن طريق المقام المحمدي (قُلْ)؛ فازداد الأمر جلالة وهيبة وعظمة؛ لأنه من المقامين الجليلين؛ الله ورسوله.

وفي المرة الثانية جاء بلفظ الخطاب بالزوجية (لأزواجك)، وهو تذكير لهنّ بمنّة العقد المتين والميثاق الغليظ الذي لم يحظ به غيرهنّ من النساء المسلمات، ولم يدخل في هذا الشرف الرفيع؛ عقد الزوجية الأفخم الأفخر بخير الرسل وصفوة الخلق حبيب رب العالمين أحد غيرهنّ.

ثم ثالثة عَظَّم الأمر بالتخيير بالعاقبة والجزاء، فقد جاء في صيغة الشرط الأول في الخيار الأول: (إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين) باختياركن دون إكراه، إلى الجزاء الخاسر المُحْسِر (أمتعكنّ وأسرحكن)، أعطيكن متعة المطلقة والخروج من البيت النبوي، وهو أشد الجزاء وأفظعه ألمًا وحسرة! إذ خروجهن من عقده والاقتران به ﷺ ومن بيوته وجواره العظيم أشد العذاب لمن تَفْقَه؛ خروجهنّ من جوار المعنى والروح، وجوار النفس والجسد. وأيّ جوار مثل هذا الجوار! لا يُحَصِّله أحد من النساء غيرهنّ.

وأي خسارة وعذاب وحرمان مثل هذه الخسارة والبعد والحرمان، بالمعنى والروح والنفس والجسد؟

وذكر بعضهم أن الآية لم تذكر في الجزاء عقابا؛ للمبالغة في تحقيق التخيير والاحتراز عن إكراههن[٣] في الاختيار. وأي عقاب ووعيد أشد عليهن من التسريح والبعد عن جنابه وجواره الشريف، معنى وروحا ونفسًا وجسدا ﷺ. فأيُّ عذاب أو ألم فوق هذا العذاب والألم!

ومما يُطمئن ما سبق في علم الله وتوفيقه في اختيارهن أن جاء بأداة الشرط (إن)، وهي للندرة، وهو متحقق؛ فلم يقع لواحدة منهن أن اختارت هذا الخيار الفاني.. وله الحمد والمنة.

فقد عُرِّفَت الحياة الدنيا بـ ال الاستغراق؛ ليستغرق ويشمل ويعمّ كل جزئياتها؛ فأيُّ إرادة لأيٍّ شؤون هذه الفانية –ولو صَغُر وكان حقيرًا– فإنه يتنافى مع القرب مع الجناب النبوي الشريف، والانتظام في عقده المُنيف ﷺ، فلا يجتمعان. مهما كانت الإرادة للدنيا صغيرة حقيرة –وكلها حقير– لا يجتمعان.

وعَطَف عليها: (وزينتها)، ولعله خصَّ الزينة بالذكر وهي من الدنيا ومظاهرها الكثيرة؛ ربما لأنها أَلْصَق وأعظم ما تحبه النساء غالبًا، ويَشْغَفْنَ بها؛ الحُليّ والزينة، وينشأن على حبها. فإذا غلب الحب الفطري المجرد للزينة وعَظُمَ في القلب بلا نية التحبُّب إلى نظره وقلبه الشريف ﷺ؛ انعطَف على الدنيا الفانية وصار منها.

وزينة الحياة الدنيا مراد به: كل ما يشغل القلب ويلهيه عن الله وذكره تعالى، والقيام بالحقوق والواجبات، وكل ما أخذ من زينة الدنيا من الحلال للتقوي به على الطاعات كان معدودا في القربات والطاعات، ولم يكن في المذمومات[٤].

---

[٣] – ينظر: تفسير أبي السعود، ج٥، ص٢٢٢، دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤١٩هـ–١٩٩٩م.

[٤] – ينظر: كتاب من أسرار التعبير القرآني، محمد أبوموسى، ص٢٤٧، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م.

ولأنهن منسوبات للجناب الأطهر الأشرف لابد أن لا يُثقلن على النبي ﷺ ويضايقنه بكثرة المطالب بما يتنافى مع علوه وارتفاعه ومجافاته للدنيا –وهو أزهد الخلق في هذه الفانية–، وهو الذي يقول ﷺ: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[٥].

وصدَّر الجزاء بقوله: (فتعالين) وأصله: أن يكون الآمِر أعلى من المأمور[٦]؛ في الرتبة أو المكان، وهو معنى المجيء والإقبال. ففيه معنى: أنهنّ لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها؛ فهُنَّ في رتبة دنيا كرتبة الحياة الدنيا من الله ورسوله في السُّفْلِ والنزول. (أمتعكن)، والمتوقَّع أن يكون الجواب فيه عقوبة، ولعلّه لم يُصرِّح بالعقوبة؛ خروجا من الإكراه في الاختيار[٧]، فلا يخفن، ويقع اختيارهن باطمئنان.

والمطلقة تُهدى إليها المتعة بلباس أو خادم، وهو ما دون المهر وأقل منه[٨]. ولكن المتعة إذا كانت من الجناب النبوي الشريف غلَبَت على كل مُتَع الدنيا وزينتها، وعلَت عليها –مهما تكن مضافة إلى الجناب الشريف–؛ فلا بد أن تتعالى الآخِذة لها وترتفع إليه ﷺ حين تأخذها؛ لأنها تكون في مكانٍ نازلٍ إذا اختارت الدنيا.

وعطَف عليه (وأُسرّحكن سراحا جميلا) ولا أجمل منه من غير ضُرٍّ ولا أذى؛ لأنه من عظيم الخلق ﷺ، الذي لا يصدر منه إلا كل جميل. لكنه سراح وخروج من بيت الزوجية النبوي، وخروج من طوق الجمال وساحة النعيم الأعلى، إلى بحبوحة الدنيا الضيّق المُنغَّص بالكَدر والنقص، الآيل إلى الفناء.

(وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) وهذا عرض الخيار الثاني بالشرط والجزاء كذلك، وهما شرطان متقابلان؛ لتُقابِل كل واحدة نفسها مع واحدٍ منهما، أيهما تميل إليه وتؤثره.

---

[٥] – صحيح البخاري (٦٤١٦).

[٦] – ينظر: الكشاف، للإمام الزمخشري، ج٣، ص٩٩، دار الكتاب العربي. وينظر: أبو السعود، ج٥، ص٢٢٤.

[٧] – ينظر: أبو السعود، ج٥، ص٢٢٤.

[٨] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص٩٨.

وهذا الشرط الثاني عرضه أثقل، وميزانه أرجح؛ بثِقَل ورجحان كلمة (الله ورسوله) عن كل ما سواهما، مما في الدنيا والآخرة.

ولم تقل (تردن رسول الله)؛ لأن إرادة رسول الله ﷺ هي إرادة الله، والإرادة لهما متلازمتان، ومع ذلك صرَّح هنا بالجزاء والعاقبة (فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما)، والذي أعدَّه هو الله تعالى! فعظمة الجزاء من عظمته تعالى وعلى قدره.

وفخَّمه وعظَّمه مرة أخرى بكلمة (عظيما) فازداد الوصف بالعظمة من الله تعالى العظيم عظمة على عظمة.

فمن التي يغيب عنها هذا الجزاء وعظمته بعظمة المُعطي (الله)، الذي وصفه هو بنفسه تعالى (عظيما). وقوله: (منكن) من هنا للبيان[٩].

وأطلق الإحسان للمحسنات، ولم يُقيّده؛ لأن أوَّله مَن أحسنت في إرادة الاختيار الثاني؛ (الله ورسوله والدار الآخرة)، فأحسنت الفهم عن الله ومراده في أبواب الإحسان في معاملة رسوله وصفيّه ﷺ، من اقتران اسمه –عز وجل– برسوله –عليه الصلاة والسلام– في هذا الخيار.

ومدلول الاسمين العظيمين (الله ورسوله) مُجَافٍ ومُباعِد عن الحياة الدنيا وزينتها، بكل دقائقها، فضلا عن كبائرها، وكله صغير حقير؛ فهو لا شيء أمام الباقي الأبدي العظيم.

وكذا جاء في الخيار الثاني أداة الشرط (إن) (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الاخرة)، وهي للنُّدرة كذلك، وهُنَّ كذلك –رضي الله عنهنّ– نادرات في كمال الإرادة لله ورسوله في الدار الآخرة من بين كل النساء؛ بدخولهنّ في الحمى النبوي والقرب المصطفوي.

- **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)**

[٩] – ينظر: الكشاف للزمخشري ج٣، ص٩٨.

وهنا جاء الخطاب مباشرا من غير واسطة (قل)، وإنما قالت الآية (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ)؛ لأنه تابع للأول، وهو استئناف ومتابعة في مخاطبتهن، وكأنهنّ -عليهن رضوان الله- اخترن رسول الله ﷺ فأصبحن منسوبات إليه، وهذا فيه رفع لمقاديرهن[١٠] -عليهن رضوان الله-

ولم يقل: يا أزواج النبي؛ ليشمل كل النساء المؤمنات في التحذير من المحاذير الواردة فيها. وأزواجه ﷺ من باب أولى وأحرى، ولترى باقي النساء كيف تكون مخاطبة القدوات من بيت النبوة، وأمرهنّ في المسارعة في الصالحات والحذر من المعاصي.

ولذا كانت نسبتهن إلى النبي ﷺ بهذا النداء؛ فقد عظَّمت شأنهنّ من بين باقي النساء، فهو المعصوم ﷺ، وسَرَت سراية عصمته إلى نسائه المجاورات له بعد ذلك؛ لارتفاع منزلتهن إلى رفعة جواره وقربه ﷺ.

فجعلت الآية عقوبة المخالفة له ﷺ في أيِّ أمر من الأمور.. صَغُرَ أو كَبُر، وتكدير خاطره الشريف؛ فاحشة؛ إذ مخالفته ﷺ منكر عظيم وشناعة مقيتة؛ لأنها واقعة في نسبة جواره ﷺ الأطهر الأقدس.

أمَّا الفاحشة الدنيئة الدَّنِسَة؛ خيانته ﷺ، فوصفها بـ (مُّبَيِّنَةٍ)، فمن باب أولى في الفحش والبعد والشناعة، والنبي ﷺ معصوم من ذلك[١١] ولا شك، وهو غير كائن ومستحيل وقوعها منهن، وقد قال ابن عباس: "ما بغت امرأة نبي قط"[١٢]؛ لأن كل واحدة منهن في كماله وجماله ﷺ مستغنية به عمن سواه. وكل مَن سواه لا شيء في جماله وكماله ﷺ، وهو من تطهير الله تعالى لأهله وآل بيته ﷺ. وهو معنى الآية الأخرى في سورة النور: (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا)[النور:١٢]. فظن المؤمن الصادق

---

[١٠] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص٩٩.

[١١] – ينظر: روح المعاني، للألوسي، ج٢١، ص١٨٤، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

[١٢] – عَنِ الضَّحَّاكِ، ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم:١٠] قَالَ: مَا بَغَتِ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] قَالَ: فِي الدِّينِ خَانَتَاهُمَا، تفسير الطبري، أبوجعفر الطبري، ج٢٣، ص١١٢، جامع البيان، دار هجر، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. تفسير عبدالرزاق، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، ج٢، ص١٥٩، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

بنفسه والمؤمنة الصادقة بنفسها؛ عدم الوقوع في شيء من هذا السوء.. فكيف بمن هنّ في عقده ﷺ! وهو معدن الجمال الأجمل والكمال الأكمل!

لذا جعل العذاب مضاعفا ضعفين (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) لأنه خيانة للجناب العالي الطاهر ﷺ. وتَعظُم العقوبة وتُضاعَف بحسب نسبة أهلها وبقدرهم، وحرمة أهل الحرم ونسبتهم إليه أعظم وأقدس، فكيف بحرمة ونسبة صاحب الحرم رسول الله ﷺ! وأيُّ حرَمٍ كحرمه! وأيُّ انتسابٍ كالانتساب لجنابه الشريف.!

وعلى قدر النعمة تكون النقمة[١٣].

وبُنِيَ الفعل (يُضَاعَفْ) للمجهول؛ لعظمته عند الله سبحانه، ولزيادة عظمة المضاعفة للعذاب –والعياذ بالله–

(وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) أشار إلى العذاب المضاعف بأداة الإشارة للعذاب بالبعيد (ذَٰلِكَ)، مما يزيده عظمة. ويُسره على الله تعالى العظيم؛ مما يزيده هيبة وتخويفا.

- **(وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)**

جاءت بصيغة المُذكَّر (يَقْنُتْ)؛ لتأخذ كل واحدة نفسها بمأخذ الرجال[١٤] في الهمة والعزم.

وهذه الجملة مقابلة للأولى (مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ)، فالأولى في المعصية والمخالفة – وكلها فاحشة–.

وجاءت الثانية مقابلة لها في القنوت والطاعة، والانقياد لله ولرسوله ﷺ، وعمل الطاعات، فإن جزاءها أن يُكتَب أجرها مرتين.

والمرتان لمكانتهن من رسول الله ﷺ في القرب والعلاقة، وهو المُقَدَّم عند الله تعالى ، ولمراعاة حقوقه ﷺ العامة على كل المسلمين. والمرة الثانية لزيادة مراعاة حقوقه

---

[١٣] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٠٠.

[١٤] – المصدر السابق.

الزوجية الخاصة ﷺ التي أكرمكن الله بها من بين كل المسلمين والمسلمات، فحُزتنّ الأجر مرتين؛ عاما وخاصا.

ولم تذكر الآية مضاعفة الأجر ضعفين، كما هو معهود في باقي الأعمال الصالحة الأخرى.. وإنما عبَّر هنا بـ (مَرَّتَيْنِ)؛ ليُغاير بينها وبين باقي الجزاءات للأعمال الصالحة، فهن –رضي الله عنهن– مُغايرات لباقي النساء في الأفضلية والشرف، وفي العمل الصالح الأشرف، وهو مراعاة حق الزوجية له ﷺ.

وليُغاير ويُخالف من جهة أخرى أسلوب الجزاء الأول، وهو المضاعفة في العذاب.

وقد تميَّز بالإكرام الخاص من الله تعالى بلا واسطة، فهو الذي يؤتها –سبحانه– بنفسه، بنون العظمة وبضمير الهاء، لكل واحدة منهن، فأيُّ إكرام أعظم من هذا الإكرام!

وفوق ذلك جزاء آخر (وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) وهذا غير الأول، ومن ذاته –تبارك وتعالى– كذلك وعبر عنه بنون العظمة.

ووُصِف الرزق بالكريم؛ لأنه بلا مُنغِّصات وتكدير الحياة الدنيا الذي يتنافى مع اختيار الجناب النبوي الشريف، وزيادة في الإكرام نسب الكرم للرزق، فكأن للرزق تكريم، وتنعيم آخر من ذات نفسه فوق التكريم.

- **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)**[الأحزاب:٣٢-٣٣].

وهنا نداء آخر مستأنف على النداء الأول، وفيه لفت أسماعهن وقلوبهن إلى المن الإلهي؛ للمزية والتفريد الذي خُصِّصن به من بين النساء كلهنّ (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ)، فلستُنّ كالباقيات.. لا الواحدة ولا الجماعة، فكلمة (أحد) كلمة عامة تُستعمل

للواحد والإثنين والجمع والمُذكَّر والمؤنث[١٥]، فلا يوجد جماعة من النساء مثلكن، ولم ترتق واحدة منهن إلى رتبتكن في القرب من الجناب النبوي الشريف.

وعُلِّقَت مزية التفريد عن باقي النساء، وجُعِلت مربوطة بالتقوى (إن اتقيتن)، فشرط التحقق بالتقوى؛ مجانبة الليونة والميوعة في الكلام حين مخاطبة الرجال الأجانب، حيث فرَّع عليها بعدها: (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)، فالنهي عن ترقيق الصوت باب التقوى الحصين الذي تُغلَق به منافذ الأهواء للقلوب المريضة، وقوله: (فيطمع) مُسبَّبٌ[١٦] عن: (فلا تخضعن).

(وقلن قولا معروفا) عطف على النهي: (فلا تخضعن) فعل الأمر: (قلن)، بتوجيه أقوالهن بجِدٍّ دون لين إلى المعروف من الخير والنفع والتعليم والإرشاد.

(وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)، وهو أمر كذلك معطوف على (فلا يخضعن بالقول).

وهذا الأمر (وقرن) بفتح القاف من القرار والاستقرار والسكون، وبكسرها من الوقار[١٧] والحشمة، فلا يخرجن إلا لحاجة وعلى الوقار والعفاف؛ لتقِلَّ دواعي الأهواء عند ضعاف النفوس من السَّماع والنظر والمخالطة.

وأكَّد بقوله: (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وكل ما قبل الإسلام من السوء والفجور جاهلية، فلا تسلكن سلوكها، وأنتن في طهر وعفاف الإسلام؛ فلا تسلكن مسالك السفور والتهتك والميوعة ولا الاختلاط بالرجال الأجانب لغير حاجة. وأنتن قارات في بيوتكن وقد أغلقتن أبواب الفتنة ومنافذها بالستر والعفاف والوقار والحشمة؛ فتتهيأن للوصلات الربانية والعطايا الإلهية.

ثم عطف عليه الأمر بالعَبِّ والشرب والامتلاء؛ للفيض والفضل الإلهي؛ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة)، وهو معطوف على النهي الأول: (فلا

---

[١٥] – ينظر: تفسير أبي السعود، ج٥، ص٢٢٤.

[١٦] – ينظر: الكشاف، ج٣، ص١٠٠.

[١٧] – ينظر: تفسير أبي السعود، ج٥، ص١٢٤.

تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وما اشتمل عليه من العفاف والطهر؛ بسَدِّ منافذ الفتنة للرجال بالقول والنظر والمخالطة لغير حاجة؛ عطف عليه الأمر الثاني: (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله)، وما اشتمل عليه من الإقبال بالهِمَّة على حقوق الخالق والمخلوق، وهي أعمال الجوارح؛ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الطاعات، وهي معطوفة على: (وقلن قولا معروفا). وكلها معطوفة على أعمال القلوب: (ومن يقنت)، فيشغلن قلوبهن وأقوالهن وجوارحهن بالاستغراق في المحبة لله ورسوله ﷺ وطاعتهما، في سائر الأوامر والنواهي.. بالنيات والأقوال والأفعال.

(وأطعن الله ورسوله) وهو من عموم قوله تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[الأعراف:١٥٧]. وهي أفضاله –عزَّ وجل– وعطاياه فيما وفَّق ومَنَّ به على كافة المؤمنين، أمَّا أنتن فلكن زيادة مِنَّة وتوفيق منه تعالى؛ لأداء حقوقه الزوجية ﷺ، والمسارعة بها، والتنعُّم والاستئناس بالمِنَح والهِبَات الإلهية في طَوقِ العقد المحمدي الأشرف، وبحبوحة جماله وجمال قربه الأقدس ﷺ، ولا غاية لهذه الطاعة المخصوصة لكنّ في إحسانها والاستزادة منها.

وما سبق هذه الجملة كله من الأوامر والنواهي هي في الطاعة لله ولرسوله، ولكن أُفرِدَت بالنص هنا: (وأطعن الله ورسوله) وعُطِفَت على السابق مرة أخرى كله؛ تأكيدا وتشريفا للخصوصية الزائدة لكنّ؛ لعلاقتكن به ﷺ بعقد الزوجية.

وكأن بناء أوامر جملة (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) مُترتّب على بناء أوامر ونواهي الجملة السابقة (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)، فإنه إن تحقَّقت أوامره ونواهيه؛ في الجملة الأولى من عدم الخضوع في القول (فلا يطمع الذي في قلبه مرض)، وقول المعروف، والقرار في البيوت، وترك عادات الجاهلية في التبرج والسفور.. إن تحقَّقَت هذه الأوامر منكنّ فإنه يتهيأ ويسهل لكنّ العبادة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الطاعات.

ويلزم من أوامر الجملة الثانية (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يلزم منه تحقيق أوامر الجملة الأولى (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا).

فالثانية متفَرِّعة عن الأولى ومتيسّرة بها، ومجازاة ومكافأة للقيام بأوامر ونواهي الجملة الأولى، فكأن الجملتين متلازمتان؛ أوامر الأولى مهيأة لأوامر الثانية، وأوامر الثانية مترتبة على أوامر الأولى وجزاء لها، لا تنفكَّان من حيث المضمون وما ينتج عنه، وإن تحقَّق ما فيهما حصل الاستقرار في الحياة الزوجية في كل بيت، ونِيلَت رُتب الترقي ودرجات الإيمان والمحبة لله ولرسوله بكمالها. وهي كذلك في أعلى نموذج لها عند أزواج النبي ﷺ.

وإن لم تتحقق بأوامرها المؤمنات في الجملة الأولى (فلا تخضعن بالقول..) فإنه يتفرَّع عنه الخلل والضعف في القيام والتحقق بأوامر الجملة الثانية: (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة..) فأبواب الطاعات يسبقها ترك المعاصي والمخالفات، والتقوى والترقي في درجات العبادات منوط بإغلاق كل منافذ التقصير والخطيئات.

فالجملتان متلازمتان، ومدلولهما معتلقان لا ينفكّان، فالثانية مُسَبَّبة ومُتفَرِّعة عن الأولى، والأولى مُمَهِّدة ومُهيّأة للثانية.

ولذا جاءت الجملة الثالثة كالمُعَلِّلة لهما ومتفرعة عنهما (..إنما يريد الله ليهذب الرجس عنكم أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، فغاية هذه الأوامر والنواهي وتحقيقهما في الجملتين: إنما هو تشريف وتكريم وتطهير؛ للتأهُّل للقرب الخاص من الله ورسوله ﷺ، فالغرض والمقصود هو إذهاب الرجس من المعاصي وسائر الدنس عن أهل بيت رسول الله ﷺ، وتطهيرهم منها تمام الطهارة.

فعلَّة هذه الجملة، وهي الطهارة من الرجس والقذر؛ كأنه نتيجة وتعليل لكل الأوامر والنواهي في الجملتين السابقتين، وأولها ومُفتتحها (فلا تخضعن بالقول فيطمع) وكأن الخضوع في القول (فيطمع الذي في قلبه مرض) هو فاتحة أبواب المعاصي للطرفين المرأة والرجل في العموم.

ووجه النص في النهي عنه؛ أمهات المؤمنين بالأولية؛ لأنهن القدوات والمؤهلات لمجاورة النبي ﷺ وأهل بيته الشريف، وهُنَّ المطهرات من ذلك –وحاشاهن من كل سوء– ومع ذلك خوطبن بهذا النهي؛ ليلتفت الطرفان من المؤمنات والمؤمنين إلى خطره.

ولو قُصِّرَ في باقي الأوامر بعده ضعُفَت النفس عن باقي الطاعات التي تلته، ولو أغلق الطرفان من المؤمنات والمؤمنين هذا الباب سَهُلَ عليهم تحقيق وتمكين سائر الأوامر بالطاعات بعده، فهو العِلَّة المقصودة التي أرادها الله في قوله: (إنما يريد الله ليذهب الرجس عنكم أهل البيت ويطهركم تطهيرا).

وأهل البيت هُنَّ الساكنات فيه بالأولية، وهُنَّ أزواجه ﷺ، وأهل البيت بالانتساب إلى نسبه الشريف ﷺ من ذريته، وكلهم مطهرون ومتحقق فيهم ذهاب وإذهاب الرجس والنجس عنهم.

وعبَّر عنه بالمضارع (يريد)، (ليذهب)، (يطهركم)؛ لأن مراده تعالى في أهل بيته ﷺ من الأزواج والذرية متصل ومتحقق ومستمر لا ينقطع إلى قيام الساعة.

وهم القدوة أهل شرف جواره والقرب منه ﷺ، جواره بالسكن وجواره بالنَّسَب[١٨]، ولذا عبَّر بميم الجمع (عنكم) ولم يقل (عنكن)؛ لتعمّ الأزواج والذرية.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة على النبي ﷺ (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس...) في بيت أم سلمة –رضي الله عنها–: «...فدعا النبيُّ ﷺ فاطمةَ وحَسَنًا وحُسَينًا، فجلَّلهم بكساء، وعليّ خلفَ ظهره، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذْهِبْ عنهم الرجس، وطهِّرهم تطهيرًا، قالت أمُّ سلمة: وأنا معهم يا نبيَّ الله؟ قال: أنتِ على مكانِكِ، وأنت على خير»[١٩].

---

[١٨] – ينظر: التفسير الكبير، للإمام الرازي، ج٢٥، ص١٦٨، دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

[١٩] – أخرجه الترمذي (٣٢٠٣).

فإن أم المؤمنين أم سلمة –رضي الله عنها– لمَّا سألته ﷺ: وأنا معهم يا رسول الله؟ لأنه جللّهم ﷺ بكسائه فاطمة وعلي والحسن والحسين، قال لها: أنت إلى خير. ولم يقل لها: أنت لست منهم، فهي على خير وباقي الأمهات كلهن على خير، فأنت لك الخصوصية، وهؤلاء لهم الخصوصية من ذريتي.

ودعاؤه ﷺ: "فطهرهم تطهيرا" قائم إلى قيام الساعة، كما في الآية الكريمة (ويطهركم تطهيرا).

دعاؤه ﷺ لا يُرَد[٢٠] ولا شك، وهو نبي الله وصفيه الأقرب، والآية بنصها (ويطهركم تطهيرا) هي مراد الله تعالى في أهل بيته.

وجملة (ويطهركم تطهيرا المؤكدة بالمصدر؛ معطوفة على جملة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) ومؤكِّدة لها، ومضمونها ومعناها في حصول الطهارة لهم –رضي الله عنهم–، هو نفس معنى إذهاب الرجس عنهم. وما هذا التأكيد إلا زيادة تمكين للطهارة، وتقرير لها، وإذهاب لكل ذرات الرجس ومنافذه. فاللام في (الرجس) للجنس والاستغراق، فكل أجناس الرجس وكل ذرَّاته يصرفها الله عنكم، ومفتاحه الأول وفاتحته: لين الأقوال (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن).

(ويطهركم تطهيرا) وهنا (استعار الطهر للطاعة والرجس للمعصية، وزاد ذلك بالمصدر).[٢١]

والطهارة حاصلة بتمامها في آل البيت النبوي، ولا شك في ذلك، وإنما المراد التنبيه والإشارة لكافة المؤمنين والمؤمنات، ولفت أسماعهم إليها، ولذا عبَّر بـ (إنما)، وهي للأمور البدهية المعروفة والمألوفة التي لا إنكار فيها ولا خلاف. وهو كذلك عند

---

[٢٠] – وهذا رد قاطع على من يتطاول على السيدة عائشة –رضي الله عنها– بالسوء، فهو متجرئ على الله ورسوله في نص الآية الشريفة بإرادته تعالى في أزواجه ﷺ وآله، وبنص الحديث الشريف في دعائه ﷺ، ولا شك أنه لا يُرد، وهو حبيبه ومصطفاه ﷺ (ويطهركم تطهيرا).

[٢١] – الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٠٢.

أمهات المؤمنين –رضي الله عنهن– فهنّ على الكمال أعلاه، بدليل أداة القصر: (إنما) التي لا تحتاج إلى تأكيد أو تقرير. وصرَّحت ونصت على الإرادة الإلهية (يريد الله).
وأتبعها بـ لام التعليل (ليذهب)، وإفادة القصر للتخصيص مرة أخرى بتقديم الجار والمجرور (عنكم). فكأن المعنى: عنكم أنتم بالذات أهل الجوار النبوي، فالآية أشارت إلى طهارتهن –رضي الله عنهن– بكل هذه الأدوات والألفاظ ودلالاتها.
فهذه الجملة (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) استئناف بياني لما سبق من الأوامر والنواهي وتعليل لها. وهي مبنية ومرتبة عليها، ومن جهة أخرى هي توكيد لجملة (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) فالخضوع بالقول والطمع في السوء مفتتح أبواب الرجس وأوله.
فمراد الله إذهاب الرجس عن أهل البيت في جملة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وهي توكيد لجملة: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) وعائدة عليها، وكأن الذي في قلبه مرض من أهل الرجس هو رجس في نفسه، يحفظ الله أمهات المؤمنين منه ويذهبه عنهن (ليذهب)، كما في الآية الأخرى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ)[التوبة:٢٨]. فالرجس والنجس ذوات المشركين والمنافقين كذلك من يؤذون نبيه ﷺ في أزواجه، وأيُّ حرمة كحرم نبيه ﷺ؟! وأي حرم كحرمه؟!
فالرجس ليس القذر والمعصية فحسب وإنما كل ما يستقذر وإن كان من الرجال الأرجاس مَن أبغضوا النبي ﷺ وأزواجه وآله وأصحابه، و (الرجس: اسم لكل متقذر، ثم استعمل في الأفعال القبيحة يقال: رجل رجس ورجال أرجاس[٢٢]. فالمستقذرات تعم

[٢٢] – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، ج٢، ص٧٢، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٦م. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ج٣، ص٣٧، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية–لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ–١٩٩٦م.

الأفعال القبيحة من الذنوب وتعم الرجال الأرجاس. وكل من يطعن في أمهات المؤمنين أو آذاهن فهم من الأرجاس.

فنظم القرآن الكريم البلاغي، والحديث الشريف، ودلالات اللغة، جهة ثالثة مع القرآن الكريم، والحديث الشريف يُثبِت وينصّ على طهارة أمهات المؤمنين أجمعين، ومنهن السيدة عائشة –رضي الله عنهن أجمعين–.

- **(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)**[الأحزاب: ٣٤].

فإذا تطهَّر القلب والقول والعمل من الرجس صار صالحا لاستقبال آيات القرآن الكريم، والقرآن الكريم دواء وطهر من كل رجس ومعصية، فهو شفاء للصدور.

وهذه الآية جاءت معطوفة على الأوامر السابقة.

وقوله (وأطعن الله ورسوله) فإن القرآن الكريم والحكمة من أقوال النبي ﷺ، هي الوحي المُنزَّل عليه ﷺ، وهي مُجمَل المعرفة لأبواب الطاعة والاستجابة. فجاء الفعل (واذكرن ما يُتلى في بيوتكن) أمرٌ بالتذكُّر بالقول والسماع مع الفكر لآيات القرآن الكريم وتوجيهاته –عليه الصلاة والسلام–.

وقدَّم الجار والمجرور (في بيوتكن) للتخصيص، فبيوتكن لها الخصوصية عند الله، فهي بالذات والأولوية، محل التنزُّلات الربانية والعطايا الإلهية، من الوحي بالقرآن وكلام نبيه ﷺ، فلابد أن تكون الأكثر تلاوة وذكرا لآيات القران والحكمة من بين سائر البيوت.

فإنها المخصوصة أولا بتنزُّل الوحي، وهي محل الذكر والتلاوة لِمَا يسمعنه من فمه الشريف ﷺ، وأنتن المستقبلات المستمعات المتذكِّرات المُذَكِّرات لمن وراءكن من الأُمَّة.

وذيَّلت الآية بقوله: (إن الله كان لطيفا خبيرا) أي فيما قضى لكنّ، بفضله وإحسانه من هذه الأحكام؛ لتتأهلن على الكمال في صحبة ومجاورة النبي ﷺ، وما فتح لكنّ من أبواب التوفيق في اعتلاء درجات رضوانه وفضله، (خبيرا) بما يُصلِح عباده ويَحسُن بهم فيما علّمهم وهداهم إليه من كُلِّ ما يأخذ بأيديهم ويسير بهم في سبل الهداية والقرب من الله ورسوله ﷺ.

- وناسب بعدها أن تأتي جملة: **(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)**[الأحزاب:٣٥].

فأوصاف المذكورين فيها أولا هو أنتن من انتفعتن غاية الانتفاع؛ بالطاعة والاستجابة لِمَا تنزَّل به الوحي الشريف من آيات الله والحكمة، وأنتن القدوات أهل بيته الساكنات عنده ﷺ، تسمعنه وتتلقين عنه ﷺ، فأنتن منبع التلقي والواسطة في البلاغ والتبليغ، في كل ما جاء عنه ﷺ من النيات والأقوال والأفعال.

وجاء في سبب نزول الآية أن أزواج النبي ﷺ قلن: ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه؟ نخشى ألا يكون فينا خير؟! فنزلت الآية.[٢٣]

وقيل أن السائلة أم سلمة –رضي الله عنها– قالت: يا رسول الله ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن والنساء لا يُذكرن، فنزلت الآية.[٢٤]

وسواء كانت السائلة أزواجه ﷺ كلهن أو واحدة أو غيرهن؛ فإن الخطاب فيها عام، والمخصوصات أزواجه ﷺ أولا، فهن القدوات، وفي سؤالهن ما يظهر حرصهن ومسارعتهن للخيرات.

وما ذكر فيها من الأعمال القلبية والعملية كلها لها اعتلاق بمبدأ التخيير الأول: (ومن يقنت منكن). وهي كذلك لها اعتلاق بجملة: (وأطعن الله ورسوله). وكلها في القنوت والطاعة لله ورسوله ﷺ، ولها رابطة بجملة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا).

---

[٢٣] – ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، ج٣، ص٦٣٩، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ.

[٢٤] – أخرجه الترمذي (٣٠٢٣).

وقوله: (إن المسلمين والمسلمات...) أوصاف الطاهرات أمثالكن، ولكل مَن تمثَّلوا بهذه الأوصاف من الرجال والنساء اقتداء بكنّ.

وسردت الآية الكريمة أوصافهم بالتتابع (إن المسلمين والمسلمات) من استسلمت قلوبهم لله ولرسوله في جميع ما أمر (والمؤمنين والمؤمنات) مَن استقرَّ الإيمان في قلوبهم، وهو غاية الحب مع التعظيم، (والقانتين والقانتات) مَن استغرقت الطاعة لله ولرسوله قلوبهم وجوارحهم.

(والصادقين والصادقات) مَن صدقوا في أقوالهم وأفعالهم وقوة إيمانهم، (والصابرين والصابرات) عن كل معصية، وعلى كل طاعة، وعلى ما ابتلاهم ربهم من الخير والشر، (والخاشعين والخاشعات) أقبلوا على الله غاية الإقبال وفي غاية الخضوع والانكسار؛ فلا يلتفتون إلى مَن سواه، (والمتصدقين والمتصدقات) بمحبة وإيثار ما استطاعوا، (والصائمين والصائمات) منعوا أنفسهم من شهوات البطن والفرج بالصيام ، وصاموا وأعرضوا عمّا سوى الله، (والحافظين فروجهم والحافظات) عمَّا لا يحلّ لهم، (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بالقلب واللسان في كل وقت وحين قياما وقعودا وعلى جنوبهم، (أعدَّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) لتشميرهم واجتهادهم في تحصيل هذه الأوصاف والتخلُّق بها، وسعيهم لبلوغ درجاتها العالية.

وقد عبَّرت الآيات بالاسمية في الأوصاف دون الفعلية، فلم تقل (أسلموا وآمنوا)؛ للدلالة على ثبوتهم فيها واستمرارهم عليها، وكأنها وصفا من أوصافهم الدائمة التي لا ينفكّون عنها ولا يتحوّلون إلى غيرها مما يُناقضها.

وعطف الأوصاف بعضها على بعض، دلَّ كذلك من جهة أخرى على كمالها وتمكُّنهم فيها؛ حتى أصبح كل وصفٍ منها قائما بذاته مستقلا عن الوصف الآخر.

وأشرك الرجال والنساء بالواو للمغايرة والتشريك في الحكم[٢٥]، فكل على قدر ما هيأ الله له من الاقتدار والسبيل والاستطاعة من النساء والرجال. ولذا جاء الجواب لهم أن الله –عز وجل– أعدَّ لهم بذاته العليَّة مغفرة لكل ذنوبهم وهفواتهم إن تأخروا أو تراجعوا

---

[٢٥] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٠٢.

عن أي وصفٍ من الأوصاف بطبيعة الضعف البشري الذي يعتري النفس فيسوقها إلى التهاون والتقصير أو التسويف في بعض الأحيان، فوعدهم ربهم سبحانه بالمغفرة لكل ذلك.

ونكَّر المغفرة؛ للدلالة على عظمتها وشمولها لكل ذنوبهم، صغيرها وكبيرها، وعطف عليها كرما آخر، وهو الأجر العظيم الذي عظمته من عظمة المُنعِم المُتفَضِّل العظيم سبحانه.

وعطف الأجر العظيم على المغفرة؛ للدلالة على عظمهما، وأنه شيء عظيم غير الأول، لأن كلاهما فضل كبير وتكرم آخر منه سبحانه استقلّ عن الآخر، بتمامه وكماله، فاحتاج الثاني إلى العطف عليه؛ لعظمه، وزاد أن وُصِفَ بأنه عظيما.

وكذا تنكيره (أجرا عظيما) فيه دلالة على تفرُّده وعِزَّته ونُدرَتِه وفخامته، ولا يُوصَف بهذا الوصف إلا لأنه من عظمة الكريم سبحانه.

المبحث الثاني:

آيات تزويج زينب بنت جحش للنبي ﷺ، وإبطال عادة التبني.

- قوله تعالى: **(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)**[الأحزاب: ٣٦-٣٧].

نزلت الآية الكريمة في زينب بنت جحش بنت عمة النبي ﷺ، وقد خطبها ﷺ لزيد بن حارثة مولاه فأبَت وأبى أخوها عبدالله، وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا عبده، فنزلت الآية، فقالا رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه.[٢٦]

وبيّنت الآية أن مقتضى الإيمان ألا يتأخر المؤمن والمؤمنة عن ما قضاه الله ورسوله واختاره لهما في أي أمر من الأمور، فإن قضاء الله لعبده المؤمن هو خيرته سبحانه له، فعليه الرضا والاستجابة، وإن لم يعجبه.

واستغراق النفي بـ (ما)، وتكريره بـ (لا) دالٌّ على أن من لم يرض غير مؤمن، وهو عتاب لزينب –رضي الله عنها– حين كَرِهَت خطبة رسول الله ﷺ إيَّاها لزيد بن حارثة، ثم لمَّا خطبها رسول الله ﷺ لنفسه الشريفة علَّقت طلبه ﷺ على الاستخارة، وما اختيار رسول الله ﷺ لها وطلبه إيَّاها إلا خيرة الله[٢٧]؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وما خيرة الله إلا خيرة رسوله ﷺ، فهو المؤيد بالوحي المُبَلِّغ عن الله، والمؤمن يُفَوِّض أمره إلى الله في خيرته ويُسَلِّم له.

---

[٢٦] – تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، الزيلعي، تخريج الكشاف، ج٣، ص١١٢، دار ابن خزيمة–الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.

[٢٧] – ينظر نظم الدرر للبقاعي، ج١٥، ص٣٤٥.

ولمَّا سلَّمت –رضي الله عنها وأرضاها– في زواجها من زيد؛ فازت بعد ذلك بتزويج الله لها رسوله ومصطفاه محمد ﷺ، في الدنيا والآخرة ومعه إلى أعلى الجنان.

وبهذا الأمر الإلهي في تزويج زينب –رضي الله عنها– بالنبي ﷺ تظهر مكانته ﷺ عند ربه، وموالاته له وإرضاءه إياه.

وإعلاء ذلك الإرضاء في الآيات البينات رغما عن أنوف المشركين الذين تكلموا عليه ﷺ في تزوجه من زوجة ولده بالتبني، وجعله شرعا له، ودينه الحق الأولى بالاتباع من شرع المشركين الباطل المبني على أساس؛ باطل في إلحاق الولد بأبيه بالتبني كالأب بالنسب ادعاء.

وجعل نبيه ﷺ القدوة الأول في ذلك، بإبطال هذه العادة الدعية بتزويجيه –عز وجل– إياه من فوق سبع سموات بزينب ابنة عمته وقد أعجبه حسنها[٢٨]، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[الضحى:٥]، وله تعالى أن يرضيه كما يشاء.

وكان يمكن أن يكون الحكم بإبطال عادة تحريم التزوج بزوجة الولد بالتبني كما في كثير من الوقائع والأحكام التي تقع لعامة المؤمنين؛ كأن تكون واقعة على رجل آخر غير شخصه الكريم ﷺ، ولكن كان حكمه فيها عزوجل واقعا على نبيه ﷺ لأنها مهمة صعبة وشرع ثابت فيهم، ولا يصلح ولا يقدر على مواجهتها وإبطالها إلا رسول الله ﷺ.[٢٩]

---

[٢٨] – ورد " أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أبصرَ زينبَ بعدما أنكحَها زيدًا فوقعتْ في نفسِهِ فقال سُبحانَ اللَّهِ مُقلِّبِ القلوبِ وسمعتْ زينبُ بالتَّسبيحَةِ فذكرتْها لزيدٍ ففَطِنَ وألقى اللَّهُ في نفسِهِ كراهَةَ صُحبتِها والرغبةَ عنها فقال لِرسولِ اللَّهِ ﷺ إني أريدُ أنْ أفارِقَ صاحبتي فقالَ ما لكَ أرابَك منها شيءٌ قال لا واللَّهِ ما رأيتُ منها إلا خيرًا ولكنَّها تتَعظَّمُ علَيَّ بشرَفِها ويُؤذيني فقال أمسكْ عليكَ زوجَكَ واتَّقِ اللَّهَ ثمَّ طلَّقها بعدُ فلمّا اعتدَّتْ قال رسول الله ﷺ ما أَجِدُ أحدًا أوثقَ في نفسي منكَ اخطِبْ لي زينبَ قال زيدٌ فانطلقت فإذا هيَ تُخَمِّرُ عجينها فلما رأيتُها عظُمتْ في صدري حتّى ما أستطيعُ أن أنظرَ إليها حينَ علمتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ذَكرَها فولَّيتُها ظهري وقلت يا زينبُ أبشري إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خطبكِ ففرِحتْ وقالت ما أنا بصانعَةٍ شيئًا حتّى أُوامِرَ ربّي فقامت إلى مسجدِها ونزَل القرآنُ زَوَّجْناكَها فتَزوَّجَها رسولُ اللَّهِ ﷺ وما أوْلَمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على امرَأةٍ ما أولَمَ عليها ذبَحَ شاةً وأطعمَ النّاسَ الخبزَ واللَّحمَ إلى أنِ امتدَّ النَّهارُ"، الراوي: غريب بهذا اللفظ • –، الزيلعي (تخريج الكشاف) • ١١١/٣.

[٢٩]– ينظر أسرار التعبير القرآني لمحمد أبو موسى ص٣٣٦

وإن صحت الرواية فهو موالاة وتأييدا له ﷺ وإسعادا له بما يحب ويرغب، ومسارعة للتفضل عليه بما تمناه قلبه وأعجبه، رغما عن أنوف المشركين وكل من خاض في التكلم فيه ﷺ. كما قالت عائشة –رضي الله عنها–: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"(٣٠).

وتشرفت زينب –رضي الله عنها– بهذا التأييد وارتفعت، ونزلت فيها الآيات البينات: (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا)، فزوجها الله تعالى فضلا ومنة رسوله الكريم ﷺ بلا مهر ولا ولي ولا شهود، وكانت ممتنة، ومفاخرة صويحباتها بذلك، فقد روي عنها أنها كانت تقول: "زوجكُنَّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات"(٣١).

وكانت أما للمؤمنين، ومن المصطفيات للقرب من نبيه ﷺ، المنتسبات إليه بعقد الزوجية؛ لإسعاده وخدمته ونصرته، وحظيت وسعدت بذلك سعادة الأبد.

وكذا علَّق الضلال على من عصى الله بعدم التسليم، بالمصدر (ضلالا)(٣٢)، ووصفه بالمبين.

- **(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)**[الأحزاب:٣٧].

وهنا تنقل الآية الكريمة القصة والحديث الذي دار بين رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة، وتدور أحداثها في الأذهان حين تُتلى ملاطفة الله لنبيه ﷺ ومنّته عليه وهو يخاطبه تعالى بذكر القصة والخطاب والحوار الذي دار بينهما، فالقصة تتجدد مع كل قراءة وتلاوة، ويُعاد حوارها في كل مرة، وهي تحكي لنا حال النبي الكريم ﷺ (وإذ تقول للذي

---

(٣٠) – صحيح البخاري (٥١١٣).

(٣١) – صحيح البخاري (٧٤٢٠).

(٣٢) – ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ج١٥، ص٣٥٦، دار الكتاب الإسلامي–القاهرة.

أنعم الله عليه وأنعمت عليه) أنعم الله عليه بالهداية للإسلام والإيمان برسوله ﷺ، وأنعم عليه –عز وجل– أن جاء به وساقه إلى بيت النبي ﷺ خيرة رب العالمين وسيد الأولين والآخرين، وفاز بجواره وقربه، وهو طفل صغير في رِقِّ العبودية، وعلق قلبه به ﷺ حتى اختار صحبته والبقاء في كنفه على أبيه وعمه وأهله(٣٣).

وأنعمت عليه أنت بحنانك ورحمتك والتشرف بالنشأة عندك وخدمتك وعتقك إياه من العبودية، ومننت عليه بتزويجك إياه ابنة عمتك، وهي من هي نسبا وحسبا وأصلا وشرفا؛ لقرابتها منك، مع أنه اشتكى منها عليك وأنه يريد تسريحها لأنها تؤذيه بحسبها وشرفها(٣٤).

---

(٣٣) "قَالَ: ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ بِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَصَيْفًا، فَاسْتَوْهَبَتْهُ مِنْهُ عَمَّتُهُ خَدِيجَةُ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَهَبَهُ لَهَا، فَوَهَبَتْهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ أَبُوهُ وَهُوَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ عِنْدِي، وَإِنْ شِئْتَ فَانْطَلِقْ مَعَ أَبِيكَ» قَالَ: بَلْ أُقِيمُ عِنْدَكَ، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى بَعَثَهُ اللهُ، فَصَدَّقَهُ وَأَسْلَمَ وَصَلَّى مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب:٥] قَالَ: أَنَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ"، المعجم الكبير للطبراني، (٤٦٥١).

(٣٤) – "جاءَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: اتَّقِ اللَّهَ، وأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ،.."، صحيح البخاري (٧٤٢٠)، وتروي هي في روية أخرى: "خَطبني عِدَّةٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ، فأرسلتُ إليهِ أختي أُشاوِرُهُ في ذلكَ، قال: فأينَ هيَ ممن يُعَلِّمُها كتابَ ربها وسُنَّةَ نبيِّها، قالت: من؟ قال: زيدُ بنُ حارثةَ، فغَضِبَتْ وقالت: تُزَوِّجُ ابنةَ عمِّكَ مولاكَ، ثم أتتني فأخْبَرَتْني بذلكَ، فقلتُ أشدَّ من قولها وغضبتُ أشدَّ من غضبها، قال: فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ؟ وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ قالت: فأرسلتْ إليهِ زَوِّجْنِي مَنْ شئتَ، قالت: فزوَّجَنِي منهُ، فأخذتُهُ بلساني فشكاني إلى النبيِّ ﷺ، فقال لهُ النبيُّ ﷺ: أَمْسِكْ عليكَ زوجكَ واتَّقِ اللهَ، ثم أخذتُهُ بلساني فشكاني إلى النبيِّ ﷺ، وقال: أنا أُطَلِّقُها فطلَّقني، فبَتَّ طَلاقِي، فلمّا انقضت عِدَّتِي لم أَشْعُرْ إلا والنبيُّ ﷺ وأنا مكشوفةُ الشَّعْرِ، فقلتُ: هذا أمرٌ من السماءِ، وقلتُ: يا رسولَ اللهِ ! بلا خِطْبَةٍ ولا شهادةٍ، قال: اللهُ الْمُزَوِّجُ وجبريلُ الشاهدُ"، السنن الكبرى للبيهقي (١٣٦/٧).

ومع ذلك أمره بإمساكها وعدم التعجل بتطليقها (وتُخفي في نفسك ما الله مبديه) وأنت تعلم بما أوحينا إليك أنه سيفارقها ثم تتزوجها أنت؛ لإبطال عادة التبني؛ لتحريمهم التزوج من امرأة الولد المُتبنى ادعاءا.

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) جاء في معنى الآية: تخشى لومهم وتعييرهم إياك، تقول عائشة –رضي الله عنها–: لو كتم النبي ﷺ شيئا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية[٣٥].

ورسول الله ﷺ مبلّغ رسالة الله، مُظهِرٌ دينه وشرعه –عزوجل– في كل ما أمره. فقد واجه كفار قريش فيما هو أشد من ذلك، واجههم في شركهم وعبادتهم للأصنام وجهر بالتوحيد، فما يتأخر في التبليغ عن ربه في شيء.

لكن هنا (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) لعله من الإحساس الأولي والشعور الطبيعي حين مخاطبة زيد إياه وشكواه إليه، فرد عليه ﷺ: (أمسك عليك زوجك واتق الله). وقد شكا إليه معاناته، فمن المستحيل أن يكون منه عزما جازما في الإخفاء والخشية من الناس، فلا يتأخر ﷺ عن ربه والبلاغ عنه –عز وجل– بدلالة الفعل المضارع: (وتخفي)، (وتخشى)، وكأن الفعل المضارع نقل إلينا الهواجس الطبيعية التي تدور في نفسه ﷺ، ولم يأته فيها الأمر المباشر بالوحي بعد.

ولو كانت عزمًا جازمًا في نفسه ﷺ بالإخفاء والخشية، لعله –والله أعلم– كان التعبير عنه بالماضي (أخفيت وخشيت)؛ وإنما هي هواجس ومخاوف أوليَّة دارت في نفسه الشريفة فنقلته الآية؛ ملاطفة له من ربه –عز وجل– ومِنَّة عليه ﷺ الذي أحاطه بعنايته ورعايته وتأييده، فقال مُنعِمًا بعدها ومُمتنًّا: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها).

---

[٣٥] – عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: "وَلَوْ كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كاتِمًا شيئًا ممّا أُنْزِلَ عليه لَكَتَمَ هذِه الآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عليه وأَنْعَمْتَ عليه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ وتَخْشى النّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]." صحيح مسلم، (١٧٧).

وهذا عين التأييد ورفعة لشأنه ﷺ؛ إذ زوّجه تعالى بزينب بلا مهر ولا ولي ولا شهود؛ زيادة في التأييد له ﷺ، وتشريفا ورفعة، مع إحاطته بحفظه وحراسته –عز وجل– من كيد الأعداء وتربصهم بالنبي ﷺ للكلام أو السِّنان، فهو المؤهل لهذه المهمة التي درجوا عليها وثبتت عندهم، فكانت شرعا قائما بينهم لا يخالفونه. فإذا واجهتها أنت و(زوجناكها)؛ سَهُلَت بعدك على عامة المؤمنين (لكي لا يكون على المؤمنين حرج).

وتشرفت زينب –رضي الله عنها– بهذا التأييد والتشريف للنبي ﷺ؛ بتزوّجها به وارتفعت إلى مقام عالٍ لم ينله مَن سواها.

المبحث الثالث:

آيات الحلال من النساء للنبي ﷺ، ورفع الحرج عنه فيما قرَّب أو بعَّد منهنّ.

- **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * ۞ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا)**[الأحزاب:٤٩-٥٢].

خاطبَت الآية بنداء التعظيم والتفخيم للبعيد نبيه ﷺ؛ لعلو قدره وارتفاع منزلته عند الله، وهي منزلة النبوة الخاتمة المُفَرَّدة له ﷺ (يا أيها النبي إنا أحللنا لك) بخطاب المُعَظِّم نفسه عز وجل (إنا)، والمُعَظَّم إنعامه وإفضاله عليك.

(أحللنا عليك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) بالنكاح فدخلن في حرمتك بما أدّيت لهن من المهور، وقوله عز وجل (آتيت أجورهن) دليل على كرمه ﷺ وكرم خلقه الشريف، وأنها سنته الشريفة أن يُقَدِّم المهر لمن أراد أن يتزوّجها ولا يؤخره عنها.

(وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) وأحللنا لك ما شئت من الإماء كمارية القبطية، ونساء السبي اللاتي ملّكك الله فضلا وفيئا وردّه عليك مما في أيدي المشركين، فأصبح في تصرّفك ومُلكك، وهو أطيب لنفسك؛ لأنه خاص لك[٣٦] وبتمكين الله لك، زيادة في المِنَّةِ والإنعام عليك، كصفية بنت حيي وجويرية المصطلقية وريحانة القُرَظِيَّة.

---

[٣٦] – ينظر: تفسير أبو السعود، ج٥، ص١٢٤

(وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) وما أحلّه لك من بنات قراباتك الكريمات المشرفات من جهة أعمامك بني عبد المطلب، وخالاتك من بني زهرة ممن تشرفن بالهجرة معك.[٣٧]

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) وأحلَّ له مَن تَهَب له نفسها من النساء، حرة أو أمة، بشرط أن تكون مؤمنة بغير مهر ولا وليٍّ ولا شهود؛ لِمَا له من المنزلة والمكانة عند الله –تبارك وتعالى–، ولما هيأه الله له من الإنباء والبلاغ؛ فيتيسَّر عليه ذلك بما فتح له من أبواب النكاح والتزوّج.

وقد قال (للنبي) ولم يقل (لك) حتى لا يشاركه في هذه المزية أحد آخر من المؤمنين.[٣٨]

(إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) وهنا التفت من الخطاب إلى الغَيْبَة وفيه من التفخيم والتعظيم لمقامه ﷺ عند الله، (إن أراد النبي) فإراداته ورغباته ﷺ عند ربه بمكان، وهي منقبة له ومزية وتفضُّل وإنعام من بين عامة المؤمنين، ولذا جاء بكلمة (لك) وهو جار ومجرور مقدّم للتخصيص، ولزيادة التأكيد والتبيين أضاف (من دون المؤمنين).

وجاء في البخاري عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: "كُنْتُ أغارُ على اللّاتي وهَبْنَ أنْفُسَهُنَّ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ، وأَقُولُ: أتَهَبُ المَرْأَةُ نَفْسَها؟! فَلَمّا أنْزَلَ اللَّهُ تَعالى: (تُرْجِئُ مَن تَشاءُ منهنَّ وتُؤْوِي إلَيْكَ مَن تَشاءُ ومَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فلا جُناحَ عَلَيْكَ)[الأحزاب:٥١]، قُلتُ: ما أُرى رَبَّكَ إلّا يُسارِعُ في هَواكَ!"[٣٩].

---

[٣٧] – جاء في الرواية "خَطَبَني رسولُ اللهِ ﷺ فاعتَذَرْتُ إليه، فعَذَرَني، ثُمَّ أُنزِلَ عليه: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] الآيةَ. فقالتْ: لمْ أَكُنْ أَحِلَّ له، لمْ أُهاجِرْ معه، وكنتُ مع الطُّلَقاءِ". الحاكم، المستدرك على الصحيحين، (٢٧٩٢).

[٣٨] – ينظر: نظم الدرر للبيقاعي، ج١٥، ص٣٨١.

[٣٩] – أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(قد علمنا ما فرضنا عليهن في أزواجهن وما ملكت أيمانهم) أي: عامة المؤمنين وما كتبنا لهم وقدّرنا عليهم في نكاح الأزواج، فلا تحل لهم زوجة بلفظ الهبة، وبغير مهر ولا وليٍّ وشهود، سواء كانت حُرة أو أمة.[٤٠]وما هو إلا تمييزٌ وتخصيصٌ لك أنت وحدك وتوسعة عليك في التزوّج، (لكي لا يكون عليك حرج) أي ضيق أو قيد ومانع؛ لتتفرغ لما أهّلناك له وكلفناك به من أعباء الرسالة والبلاغ، وقدَّم الجار والمجرور (عليك) لزيادة معنى التخصيص له ﷺ مع التصريح به.

وذيَّلت الآية بقوله: (وكان الله غفورا رحيما) لِمَا يُشفَق منه ﷺ من العدل في الحقوق وميل المحبة؛ وهو الذي يدعو ربه ﷺ: " اللهمَّ هذا قَسْمَي فيما أَمْلِكُ فلا تَلُمْني فيما لا أَمْلِكُ"[٤١].

ولذا أكَّد المغفرة والرحمة بقوله بعدها -عز وجل- ملاطفا لنبيه ﷺ ومؤانسا وماناًّ (ترجي من تشاء منهن وتؤوي من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) وقد جاء في سبب نزولها: "أَنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يُفارقَ نساءَه فقُلْنَ له اقسِمْ لنا من نفسِك ومالِك ما شئتَ ودعْنا على حالِنا"[٤٢].

و: (تُرجِي) بالهمز بمعنى: تُؤخِّر مع ما يؤنسها من فضله ﷺ. وبغير همز أي: تؤخرها وترجو فضلك[٤٣] ﷺ. فالخيار لك مفتوح بابه كما تشاء في تأخير من أردت منهن وضم وتقريب من تشاء، وفي اعتزال من تشاء بطلاق أو ترك مبيت أو الرجوع إليها مرة أخرى بقسم أو بغير قسم، فإن عُدت إلى التي اعتزلتها ورغبت فيها مرة أخرى، فالحرج مرفوع عنك والإذن لك مفتوح كما تُحب وترضى.

---

[٤٠] – ينظر: نظم الدرر للبيقاعي، ج١٥، ص٣٨٣.

[٤١] – أخرجه أبو داود (٢١٣٤) واللفظ له، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١).

[٤٢] – تخريج الكشاف للزيلعي، ج٣، ص١١٧.

[٤٣] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٢٢.

وجملة (فلا جناح عليك) تأكيد وزيادة تقرير لمعنى الجملة الأولى (لكي لا يكون عليك حرج) فلا قيود ولا موانع تُقيدك أو تمنعك مما تحبه وترغبه وتميل إليه من القرب أو البعد من نسائك.

(ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن)، ذلك التخصيص بالتوسعة عليك والفسحة ورفع الموانع عنك فيما يميل إليه قلبك ويحبه فؤادك فيما ترغبه من نسائك فتُقَرِّب أو تبُعد منهن؛ أدعى أن تطمئن إليه نفوسهن، وتَقرُّ به أعينهن، وهو من القرار والسكينة والطمأنينة، وقرار أعينهن، كناية عن الرضا والسرور[٤٤]؛ وهو مراد الله لهن.

وهذه ملاطفة لهن من الله تعالى العليّ الكبير؛ لِمَا لهن من الحظوة العظيمة بالقرب من نبيه ومصطفاه ﷺ، وسَبْق غيرهن للفوز لمجاورته في بيوته ﷺ بالصحبة والعشرة.

وزيادة في المؤانسة والعطف؛ عطف على الملاطفة الأولى ملاطفة ثانية، (ولا يحزن) فنُهين عن الحزن والانكسار إذا تأخَّر نصيبهن من رسول الله ﷺ في الميل أو القسمة أو الاعتزال.

وعطف عليه ملاطفة ثالثة (ويرضين بما آتيتهن كلهن) بأن يرضين ويفرحن بما آتهن رسوله ﷺ؛ من القرب والرحمة والحنان وحسن خلقه وعشرته، والبقاء في قربه وعقد زوجيته الشريفة، فهو من أعظم المِنَن عليكنّ منه –تبارك وتعالى– في إنالتكن هذا الشرف وخصّصكن به.

وهذا الحنو والتلطُّف منه –تبارك وتعالى– كي يعلمن أنه من الله وفضله على نبيه ﷺ في التوسعة عليه، فلا تحزن ولا تسخط واحدة؛ وإنما تُسَلِّم وترضى وتطمئن إلى حكم الله وأمره، وأكَّد بقوله (كلهن) فلا يفوت واحدة منهن هذه الوصاة من ربها.

ولذا ختمت بقوله: (والله يعلم ما في قلوبكم) أي من الرضا والتسليم أو عدمه.

وذيَّلت بقوله: (وكان الله عليما حليما) وهي زيادة تأكيد لعلمه المحيط –تبارك وتعالى– بكل شيء بما في القلوب وبكل ما يصدر منكم من أعمال، ويحلم بفضله عليكم فيما

---

[٤٤] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٢٢.

لا يرضاه منكم، وقد رُوي عن السيدة عائشة: "أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يَسْتَأْذِنُ في يَومِ المَرْأَةِ مِنّا، بَعْدَ أنْ أُنْزِلَتْ هذِه الآيَةُ: (تُرْجِئُ مَن تَشاءُ منهنَّ، وتُؤْوِي إلَيْكَ مَن تَشاءُ، ومَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فلا جُناحَ عَلَيْكَ) فَقُلتُ لَها: ما كُنْتِ تَقُولِينَ؟ قالَتْ: كُنْتُ أقُولُ له: إنْ كانَ ذاكَ إلَيَّ فإنِّي لا أُرِيدُ يا رَسولَ اللَّهِ، أنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أحَدًا"[٤٥].

- (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا)

وهذه ملاطفة رابعة لأزواجه ﷺ ومكافأة لهنّ؛ أن اخترن الله ورسوله وأعرضن عن الدنيا بعد آية التخيير الأولى، بما يسرهن ويُفرِح قلوبهن من تحريم غيرهن عليه ﷺ من بعد هؤلاء التسع، وأكَّد بعدها بقوله –عز وجل–: (ولا أن تبدَّل بهن من أزواج) أي: من هؤلاء التسع المُعيّنات، وهو توكيد ثانٍ يُفرِح قلوبهن ويُدخل السرور عليهن أكثر، بإغراق النفي بـ (من).

وتنكير (أزواج)؛ لتعظيم جمالهن فمهما يكن حسن واحدة أخرى، فلا تُطلِّق واحدة منهن وتأخذها بدلا عنها. أما إن ماتت واحدة فله أن يتزوج ﷺ أخرى مكانها[٤٦].

وكذا جاء التوكيد الثالث في التحريم في قوله: (ولو أعجبك حسنهن) فمهما تكن جميلة وغاية في الحسن فلا تحل لك بعد هؤلاء التسع.

ثم استثنى الإماء لأنهن داخلات في كلمة (الأزواج) فلك التزوّج بمن شئت منهن وبأي عدد.

(وكان الله على كل شيء رقيبا) أي: فيما يعمله عباده من الأعمال وينوونه من النوايا فيما يحبه ويرضاه أو يسخطه –عز وجل–.

وتقول السيدة عائشة –رضي الله عنها–: "ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء"[٤٧].

---

[٤٥] – صحيح البخاري (٤٧٨٩).

[٤٦] – ينظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص١٢٣.

[٤٧] – سنن الترمذي (٣٢١٦).

الخاتمة:

تناول البحث الآيات التي خاطبت أمهات المؤمنين خطابا مباشرا، في آيات من سورة الأحزاب، وتناولت مواقف خاصة من حياتهنّ الزوجية مع رسول الله ﷺ، وأظهرت ما لرسول الله ﷺ من المكانة والوجاهة، تشرفن بها –عليهن رضوان الله– وازددن علوّا ورفعة ومكانة، وكان من أهم النتائج:

١– وجّهت إليهنّ التوجيهات الرفيعة والوصايا الرحيمة دارت حيث يدور رضاه ﷺ، وتوجهت حيث توجّه سروره وطمأنينته وسكنه ﷺ؛ نلن بها وعودا بالفضل والمغفرة العظيمة والرزق الكريم مالا يخطر لهن ببال إن أخذن بها وتحلّين بأوصافها؛ ما هو دليلٌ وبرهان واضح جليٌّ على طُهرهنّ ورفعتهنّ وارتفاعهن عن كل سوء ودنس، بشهادة الآيات الكريمة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، فالطهر حلّ بهن ومعهنّ حيث حللن، ودار معهن حيث دُرن، وسَرَت سراياته إلى الأمة كلها بتلك المواقف التي وقعت منهن مع رسول الله ﷺ.

٢– أثمرت تلك المواقف التي صدرت من أمهات المؤمنين مع رسول الله ﷺ التوجيهات الإلهية والوصايا الربانية في القرآن الكريم، يتعلمها كل مسلم ومسلمة، إلى قيام الساعة بدلالة الآن والمستقبل في الفعل المضارع في الآية الكريمة: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس)، فالرجس ذاهب عنهم ومتصل ومستمرٌ إذهابه عنهم إلى قيام الساعة، سواءا كان فعلا أو شخصا، ولو حاول المبطلون واجتهدوا إلصاقه بهم ورميه إليهم.

٣– تأهّلهن للسكن في بيوت النبي ﷺ له دلالة دخولهن في هذه النسبة بالأولية في قوله تعالى: (أهل البيت) مع الآل والذرية، لأن أهل الرجل أزواجه، فهنّ المشمولات في هذا الطهر والتطهير مع الآل والذريّة التي أرادها الله لأهل البيت إلى قيام الساعة، ومنتفٍ عنهن رصد تلك السهام المعوجّة والرِّماح المُثَلَّمة الملوّثة.

٤– ما يُفهَم من دلالة تراكيب هذه الآيات يظهر مدى رفعة قدره ﷺ وعلو منزلته عند باريه وتأييده له في دقائق حياته الخاصة الشريفة ﷺ، ومع ألصق وأقرب من يسكن معه من أزواجه في بيوته ﷺ، والعناية والرعاية التي تحوطه ﷺ وتيسر له كل ما يشرح صدره ويرفع الحرج عنه حتى في خاصة حياته.

مراجع البحث

١- أسرار البلاغة في علم البيان، عبدالقاهر الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ-١٩٩٦م.
٣- التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
٤- تفسير أبي السعود، محمد أبو السعود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٥- تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
٦- تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، جامع البيان، دار هجر، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٧- خصائص التراكيب، محمد أبوموسى، مكتبة وهبة-القاهرة، ط٤، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٨- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، الخانجي-القاهرة.
٩- دلالات التراكيب، محمد أبوموسى، مكتبة وهبة-القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
١٠- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
١١- سنن الترمذي.
١٢- صحيح البخاري.
١٣- صحيح مسلم.
١٤- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٥- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي.
١٦- المستدرك على الصحيحين للحاكم.

١٧- المعجم الكبير للطبراني.
١٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن، الحسين بن مسعود البغوي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٤٢٠هـ..
١٩- من أسرار التعبير القرآني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي-القاهرة.